الفصل الثالث

أصول الحضارة الإسلامية

- القرآن الكريم.
- السنة النبوية.
- الحضارة العربية.
- الحضارة الفارسية.
- الحضارة اليونانية والرومانية.

obeikandl.com

obeikandl.com

القرآن الكريم والسنة النبوية

القرآن الكريم كتاب الله الذى ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت : ٤٢] ، ﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ [هود : ١] .

كتاب أوامره هدى لمن استبصرها، وأمثاله عبرا لمن تدبرها، شرع الله فيه واجبات الأحكام ، وفرق فيه بين الحلال والحرام، وكرر فيه المواعظ والقصص لذوى الأفهام، وقص فيه غيب الأخبار؛ فقال تعالى : ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام : ٣٨]، خاطب به أولياءه ففهموا، وبين لهم فيه مراده فعلموه (١) .

وفى الحق إن القرآن – كما قال منزله جل شأنه – لم يفرط فى شىء؛ فقد جاء للإنسانية بكل ما فيه خيرها وسعادتها، وكان ما شرَعه لها محكما وعاما حتى يكون صالحا لكل زمان ومكان .

« ثم إنه جعل إلى رسوله بيان ما كان منه مجملا، وتفسير ما كان منه مشكلا، وتحقيق ما كان منه محتملا؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه؛ قال تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [النحل : ٤٤] فصار القرآن أصلا والسنة بيانا » (٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر : ٧] . وقال عز من قائل ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ** ﴾ [الشورى : ٥٢–٥٣] .

وعن عمران بن الحصين : « أنهم كانوا يتذاكرون الحديث فقال رجل : دعونا من هذا، وجيئونا بكتاب الله، فقال عمر : إنك أحمق أتجد فى كتاب الله الصلاة مفسرة،

---

(١) مقدمة تفسير القرطبى ص١ .

(٢) مقدمة تفسير القرطبى ص ٢ .

أتجد فى كتاب الله الصيام مفسرا، إن القرآن أحكم ذلك والسنة تفسره »[1] .

فـهـو المفـسـر للكتـاب وإنما نـطـق الـنـبـى لـنـا بـه مـن ربـه[2]

وحتى يتبين لنا أن القرآن الكريم، و لسنة النبوية هما الأصل الأصيل للحضارة الإسلامية نتكلم عنهما من النواحى الآتية :

(أ) الناحية الدينية . (ب) الناحية الاجتماعية والأخلاقية .

(جـ) الناحية الاقتصادية . (د) الناحية الأدبية والعلمية .

(هـ) الناحية السياسية .

(أ) الناحية الدينية .

١- شرع لهم الصلاة لتكون صلة بين العبد وربه، ولتنهاه عن الفحشاء والمنكر، قال جل شأنه :﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾[3] [العنكبوت :٤٥].

وجعل لهم فى يوم الجمعة من كل أسبوع صلاة جامعة، تكون سبيلا للتعارف والتراحم، والتواصل والتعاطف، يسعون إلى ذكر الله إذا سمعوا النداء لها، ويذرون البيع وما إليه من عرض الدنيا ليتفرغوا للعبادة، والتوجه إلى ربهم وقتا أطول مما هو فى الصلاة اليومية .

٢- شرع لهم الزكاة، وسيتبين من الكلام عليها بعد قليل، أنها إلى جانب ناحيتها الدينية لها الأثر البالغ فى النواحى الاجتماعية والإنسانية التى تمس حياتنا، وتتصل بها اتصالا وثيقا .

٣- شرع لهم الصوم لتقوى به الروح على كبح جماح النفس، ولتنكسر حدة الشهوات والنزعات التى تعوق سموها، وليحس الصائم بألم الجوع والحرمان؛ فيعطف على الفقير والمحروم .

---

(١) مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة للسيوطى ص٤٢ .

(٢) الضمير فى قوله : (فهو المفسر) للحديث النبوى الشريف .

(٣) قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً » . راجع تفسير الآلوسى فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ [العنكبوت :٤٥]

٤ - شرع لهم الحج ليكون موفدا عاما يشهدون فيه منافع لهم، ويتواصون بالحق وبالصبر، ويتشاورون فى أمورهم وما يهمهم، ويتعاونون على الخير [١] .

وهو مظهر الإخاء والمساواة الحقة بين جميع المسلمين، لا فرق بين الغنى والفقير، فالكل يلبس لباسا موحدا متماثلا، والكل يهتف بهتاف واحد، ويدعو ربا واحداً .

٥- وأخيراً حثهم على التوبة، وأشعرهم بقبولها إذا ما أنابوا إلى ربهم، وعملوا صالحا، فقال لهم: ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [النور: ٣١]، وقال: ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ** ﴾ [طه: ٨٢]؛ وبذلك يظل المسلم قريبا من ربه، وثيق الصلة به؛ وهذا مما يحمله على تقويم سلوكه، وتهذيب أخلاقه . إلى غير ذلك من التشريعات الدينية التى تهذب النفوس، وتسمو بالأخلاق .

ومن ذلك نرى أن الله سبحانه أمر بأن يجتمع المسلمون فى مساجدهم كل يوم خمس مرات، ثم يجتمعون اجتماعا أكبر فى المسجد الجامع كل أسبوع مرة، ثم يجتمع من يستطع الحج منهم كل سنة مرة، هذا إلى تعويدهم الصبر وقوة العزيمة، واحتمال الشدائد بالصوم، والسخاء والبذل والعطف على الفقير بالزكاة .

ومن ثم يوجد المجتمع الصالح، ويسعد الناس جميعا، وينعمون بالمحبة والإخاء .

(ب) الناحية الاجتماعية والأخلاقية .

جاء فى القرآن الكريم الكثير من الشرائع الاجتماعية والأخلاقية، نذكر منها ما يأتى :

(١) ما يتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض .

(٢) ما يتعلق بالحدود والقصاص .

(٣) ما يتعلق بالآداب الاجتماعية .

---

(١) نرى الآثار الطيبة التى تعقب اجتماع زعماء المسلمين ورؤسائهم واضحة لا تحتاج إلى بيان مما يبين جانبا من حكمة مشروعية الحج وآثاره الاجتماعية والإنسانية .

● **المعاملات :**

جمع الله أساس المعاملات فى مواضع من الكتاب الكريم، ومنها أنه :

١- أمر أمراً عاما بالوفاء بالعقود فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيُّها الَّذين آمنُوا أوفُوا بِالْعُقُودِ** ﴾ [المائدة : ١]، والعقود كلمة تشمل جميع الالتزامات التى يلتزمها الإنسان للإنسان، من بيع وشراء، ورهن وإجارة، وغير ذلك من ضروب المعاملات .

٢- نهى عن أكل أموال الناس بالباطل فقال :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِين آمنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُم بينكُم بِالْبَاطِلِ** ﴾ [النساء : ٢٩] .

٣- نهى عن أكل الربا نهياً مشدداً فى أكثر من آية، ومثل آكليه أشنع تمثيل، وآذنهم بحرب من الله ورسوله إن لم يقلعوا عن أكله؛ لئلا تضيع المروءة من الناس، وتدب الكراهة فى نفوسهم، فضلا عما فيه من مفاسد أخرى كثيرة [١]، فقال : ﴿ **الَّذِينَ يأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِن الْمسِّ** ﴾ [البقرة : ٢٧٥]،وقال :﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾[البقرة : ٢٧٩] .

٤- حث على إنظار المدين إن كان معسرا، بل والحط عنه فقال : ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[البقرة : ٢٨٠] .

٥ - عظم أمر الكيل والوزن، ونهى عن التطفيف فيهما فى كثير من الآيات لابتناء عامة المعاملات بين الناس عليهما فقال :﴿ **أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِين** ﴾ [الشعراء : ١٨١] ﴿ **وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ** ﴾ [الإسراء : ٣٥]، وقال : ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾[المطففين : ١-٥]

٦ - بين كيفية التعامل فى أطول آية من القرآن، وهى آية الدين فقال : ﴿ **يا أيُّها الَّذين آمنُوا إذا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجلٍ مُّسمًّى فَاكْتُبُوهُ ...** ﴾ الآية [البقرة : ٢٨٢]. أمر

---

(١) سنعرض لبعضها فيما بعد .

فيها أمراً مؤكداً بكتابة الدين والشهادة عليه، وجعل للدين أجلا ينتهى إليه، وجعل الرهن وثيقة بما فى الذمة إن لم يجدوا كاتبًا، ثم أوجب أن يؤدى الأمين ما أؤتمن عليه إلى من ائتمنه.

٧ – أوجب على المؤمنين أن يؤدوا الشهادة ويقيموها فى أكثر من آية فقال: ﴿ **ولا تكْتُمُوا الشَّهَادةَ ومَن يكْتُمْهَا فإنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ** ﴾[البقرة:٢٨٣]، وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ** ﴾ [النساء:١٣٥]؛ وذلك لأن الشهادة تكفل أداء الحقوق إلى مستحقيها، وقد تكون هى السبيل الوحيد إلى إقرار العدل فى نصابه.

٨ – أمر بالعدل وحث عليه، وأكده تأكيداً فى غير ما آية فقال: ﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾[النساء:٥٨]، وقال: ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾[المائدة:٨]، وقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾ [النحل:٩٠].

● **الحدود والقصاص:**

١ – حرم القرآن القتل وسفك الدماء، وبين أن من قتل مظلوما فقد جعل لوليه سلطانًا فى الاقتصاص، ونهاه عن أن يسرف فى القتل فقال: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا** ﴾ [الإسراء:٣٣].

٢ – وبين أنه شرع لنا القصاص فى القتلى فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى** ﴾ [البقرة:١٧٨]، وحث عليه وبين فائدته للمجتمع فقال: ﴿ **ولَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾[البقرة:١٧٩]، وندب إلى العفو بأسلوب يدعو إلى العفو فقال: ﴿ **فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ** ﴾

[البقرة:١٧٨]

أما الحدود فقد ذكر منها أربعة:

١ - **الأول حد الزنا**: وقد جعله الكتاب مائة جلدة؛ فقال: ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** ﴾ [النور: ٢].

٢ - **الثاني حد القذف**: وقد جعله الكتاب ثمانين جلدة؛ فقال: ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [النور: ١٤].

٣ - **الثالث حد السرقة**: وقد جعله الكتاب قطع اليد؛ فقال: ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ** ﴾ [المائدة: ٣٨].

٤ - **الرابع حد قطاع الطريق**: وهم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً، وقد بينه بقوله: ﴿ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٣٣]؛ فجعل للإمام أن يقتلهم، أو يصلبهم، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفيهم من الأرض.

وبالتأمل يظهر أن الكتاب قد شرع هذه العقوبات للحاجة إليها فى تأمين الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ولجعل الطريق حرة آمنة للسابلة (١).

وجعل هذه العقوبات تسقط إذا تاب مرتكبها قبل القدرة عليه، قال تعالى: ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[المائدة: ٣٤] (٢).

---

(١) محال على مثل محمد ﷺ ومن كان على مثل تربيته ونشأته وبعده عن الدرس والتعليم أن يأتى بهذه الأصول التشريعية العظيمة، التى هى غاية ما تسموا إليه عقول الفلاسفة والعلماء بعد فناء الأجيال، وتعاقب الدهور فى البحث والدرس إلا أن ذلك فيض إلهى ووحى سماوى، والله يختص برحمته من يشاء - راجع تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ النجار.

(٢) راجع حاشية ابن عابدين فى فقه الأحناف جـ ٣ ص ١٩ .

● **الآداب الاجتماعية والأخلاقية:**

ذكر القرآن الكريم الكثير من الآداب الاجتماعية والأخلاقية التى تدل بوضوح على سمو الدين الإسلامى، وأنه دين اجتماعى يهدف إلى سعادة المجتمع فى دنياه، كما يهدف إلى سعادته فى آخرته، ومن هذه الآداب:

١ – آداب الاستئذان بين أهل البيت الواحد، وقد بينها بقوله: ﴿ **يَا أَيُّها الَّذين آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِين مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ والَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صلاةِ الْفجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّن الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [النور:٥٨].

٢ – آداب الاستئذان عند تزاور الناس بعضهم مع بعض، وقد بينها بقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا** (١) **وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ** ﴾ [النور:٢٧]

٣ – أنه نهى النساء أن يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وهو ما كان على الأعضاء الظاهرة، وأمرهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن (٢)، وأباح لهن إبداء الزينة بمحضر أقارب ذكرهم بقوله ﴿ **وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ . . .** ﴾ الآية [النور:٣٤].

---

(١) تستأنسوا من الاستئناس بمعنى الاستعلام والاستكشاف من آنس الشيء إذا أبصره ظاهرا مكشوفا.

(٢) الجيب: فتح فى أعلى القميص يبدو منه بعض الجسد، والمراد به هنا محله وهو العنق.

٤ أنه أمر برد التحية بأحسن منها أو بمثلها فقال: ﴿ **وإذا حُيِّيتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو رُدُّوها** ﴾[النساء: ٨٦].

٥ أنه أمر بالصبر وحث عليه كثيرا، وقد ذكره أكثر من سبعين مرة، وجعله ركنا من أركان الفوز فقال: ﴿ **والعصر ۞ إنَّ الإنسان لفي خُسر ۞ إلاَّ الذين آمنُوا وعملُوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصَّبر** ﴾[العصر: ١-٣]، وقال: ﴿ **يا أيُّها الَّذين آمنُوا استعينُوا بالصَّبر والصَّلاة إنَّ اللَّه مع الصابرين** ﴾ [البقرة: ١٥٣] إلى غير ذلك من الآيات.

٦ - أنه حض على العفو والصفح فى غير ما آية، فمن ذلك قوله: ﴿ **والكاظمين الْغيظ والعافين عنِ النَّاسِ** ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

٧ - أنه حث على الصدق، ووعد بالأجر عليه، ونهى عن الكذب وعظم إثم فاعله فى كثير من الآيات، فمن ذلك قوله: ﴿ **يا أيُّها الَّذين آمنُوا اتَّقُوا اللَّه وكُونُوا مع الصَّادقين** ﴾ [التوبة: ١١٩].

٨ - أنه نهى عن التجسس والغيبة، ومَثَّل المغتاب أقبح مَثَل، فقال: ﴿ **ولا تجسَّسُوا ولا يَغْتب بَعضُكُم بعضًا أيُحبُّ أحدُكُم أن يأكُل لَحْم أخيه ميتا فكَرِهتُمُوهُ** ﴾ [الحجرات: ١٢].

٩ - أنه أمر بالاتحاد ونهى عن التفرق فى كثير من الآيات، فمن ذلك قوله: ﴿ **واعتصمُوا بحبلِ اللَّه جميعا ولا تفرَّقُوا واذكُرُوا نعمت اللَّه عليكُم إذ كُنتُم أعداء فألَّف بين قُلُوبكُم فأصبحتُم بنعمته إخوانًا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

١٠ - أنه حض على الصلح سواء أكان بين الزوجين أو غيرهما، فقال: ﴿ **فلا جُناح عليهِما أن يُصلِحا بينهُما صُلحًا والصُّلحُ خيرٌ** ﴾[النساء: ١٢٨]، وقال: ﴿ **وإن طائفتان من المُؤمنين اقتتلُوا فأصلحُوا بينهُما** ﴾ الآية [الحجرات: ٩]، وقال: ﴿ **وأصلحُوا ذات بينكُم** ﴾[الأنفال: ١].

١١ - أنه نهى عن أن يسخر قوم من قوم، وعن اللمز والتنابذ بالألقاب وسمى ذلك فسوقا فقال: ﴿ **يا أيُّها الَّذين آمنُوا لا يسخر قومٌ مِّن قومٍ عسىٰ أن يكُونُوا خيرا مِنهُم ولا نساءٌ مِّن نساءٍ عسىٰ أن يكُنَّ خيراً مِنهُنَّ ولا تلْمِزُوا(١) أنفُسكُم ولا تنابزُوا بِالألقابِ بِئس الاسمُ الفُسُوقُ بعد الإيمانِ ومن لَّم يتُب فأُولَئك هُمُ الظَّالِمُون** ﴾ [الحجرات: ١١].

١٢ - أنه حث على إكرام الجار فقال: ﴿ **والجارِ ذِي القُربىٰ والجارِ الجُنُبِ** ﴾ [النساء: ٣٦] إلى غير ذلك من الآداب الاجتماعية السامية التى لا يمكن أن توجد إلا فى مثل المجتمع الإسلامى الفاضل.

● **الناحية الاقتصادية (٢):**

القصد خلاف الإفراط وهو ما بين الإسراف والتقتير ... وفى الحديث «ما عال مقتصد ولا يعيل» أى ما افتقر من لا يسرف فى الإنفاق ولا يقتر (٣) وعلم الاقتصاد علم يبحث فى السلوك الظاهرى للفرد حال سعيه لتدبير معاشه.

● **هدفه:**

يقول علماء الاقتصاد: إن هدف الاقتصاد هو تحقيق الرفاهية للناس جميعا، وإن الفكر الاقتصادى بصفة عامة هو جملة الآراء والمفاهيم المعنوية التى تؤثر فى سلوك الإنسان تجاه الثروة وإنتاجها وتوزيعها.

وإن النظرية الاقتصادية مفهوم متكامل يقوم على دعامتين هما: الإنتاج والتوزيع، ولكل منهما نظرية تكمل الأخرى.

كما يرون للنفوذ نظرية ثالثة تتفرع على القيمة، ولئن كانت نظرية النقود تمد الباحث فى الدراسات الاقتصادية بمادة جديرة بالنظر العلمى إلا أنها غير منفصلة عن جوهر الاقتصاد وهو: إنتاج وتوزيع، ولذلك يمكن القول بوجود نظريات ثلاث

---

(١) اللمز: العيب وأصله الإشارة بالعين ونحوها.

(٢) راجع محاضرة الأستاذ عيسى عبده إبراهيم (القرآن والدراسات الاقتصادية) التى ألقاها فى قاعة الشيخ محمد عبده، وكتاب علم الاقتصاد للمصريين للأستاذ محمد فهمى لهيطة، وغيرهما من الأبحاث والكتب التى أبانت وجهة نظر الإسلام فى الاقتصاد.

(٣) لسان العرب.

متكاملة: إحداها للإنتاج، والثانية للتوزيع، والثالثة للنقود، ومنها مجتمعة تتألف النظرية الاقتصادية.

والسؤال الذى نواجهه بعد هذا التمهيد هو:

هل جاء القرآن الكريم، وجاءت السنة النبوية، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده بعناصر متكاملة تمد الفكر العلمى بنظرية علمية يقوم عليها النشاط الاقتصادى فى كل من الإنتاج والتوزيع، وفى ظل ما يعرف بالاقتصاد النقدى؟ والجواب: نعم.

وسنكتفى بإلمامة خفيفة فى هذا الشأن تبين عن غرضنا؛ إذ ليس من همنا البحث الموضوعى فى الاقتصاد فضلا عن أن له رجاله الذين خصصوا أنفسهم له.

إن القرآن الكريم قد أرسى القواعد الكلية لتنظيم الاقتصاد، وجاء بعناصر متكاملة تمد الفكر العلمى بحاجته منه، وتشتمل على الأسس التى تكفل للجنس البشرى أوضاعا اقتصادية تحقق له مستويات عليا من الرفاهية قبل أن يقوم علم الاقتصاد، ويصل إلى ما وصل إليه من التقدم، ومما جاء فى القرآن:

١ - مبدأ العمل:

العمل هو السبيل الطبيعى لكسب المعاش، وهو الدعامة التى يقوم عليها المجتمع الإنسانى؛ فهذا رجل من أفراد المجتمع يزرع، وذاك يصنع، وآخر يتجر، وغيره يعالج المرضى، أو يسهر على حفظ الأمن. أو يدافع عن الوطن إلى غير ذلك من الأعمال التى يقتضيها نظام الجماعة البشرية، ومن أجل ذلك حث الإسلام على العمل، وحض على الكسب من طرقة المشروعة؛ فقال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾ [الملك: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال عز وجل: ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [التوبة: ١٠٥]،

وقال ﷺ: «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» (١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتى رجلا فيسأله أعطاه أو منعه» (٢).

وعن عمر رضى الله عنه أنه قال: «لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقنى، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة».

إلى كثير من الآيات والأحاديث والآثار التى تدل على عناية الإسلام بالعمل، وتبين مدى أهميته للفرد والجماعة.

٢ - الزكاة:

الزكاة من أهم الأسس التى يقوم عليها المجتمع الإنسانى، وينتظم بها اقتصاده؛ فهى من العوامل التى تقلل الفوارق بين الناس فى خطوط الدنيا، وتطهر نفوس الأغنياء من الشح والبخل، وفيها تتجلى مواساة الأغنياء لإخوانهم الفقراء، وسد خلتهم، كما أنها تدفع عن الأغنياء عواقب الحقد عليهم من نفوس الفقراء؛ فتسود المحبة، وتقوى أواصر الألفة والتعاطف والتراحم بينهما، ومن ثم جعلها الإسلام أحد الأركان التى يقوم عليها بنيانه، وحث عليها القرآن فى كثير من آياته، ورغب فيها، وقرنها بالصلاة؛ لأن الصلاة صلة بين العبد وربه، وفيها إصلاح للنفوس، والزكاة صلة بين الأغنياء والفقراء، وفيها إصلاح لشئون المجتمع. قال تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا**﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال عز من قائل: ﴿**وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ**

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب البيوع. والحكمة فى تخصيص داود بالذكر أن اقتصاره فى أكله على ما يعمل بيده لم يكن من الحاجة؛ فقد كان خليفة الله فى الأرض «يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض» وإنما اختار الأكل من الطريق الأفضل، وفى ذلك الدليل على أن خير الكسب عمل اليد.

(٢) أخرجه البخارى فى باب وجوب الزكاة. وفى باب بيع الحطب والكلأ.

النَّاس فلا يربُو عند اللَّه وما آتيتُم من زكاة تُريدُون وجه اللَّه فأُولئك هُمُ المُضعفُون ﴾[1] [الروم: ٣٩]، وقال عز وجل: ﴿ خُذ من أموالهم صدقة تُطهّرُهم وتزكيهم بها ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿ وفي أموالهم حقٌ للسّائل والمحرُوم ﴾ [الذاريات: ١٩]، وقال ﷺ: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان». إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى تكشف عن كثير من نواحى الاقتصاد التى يسعد بها المجتمع.

وإذا استمع الأغنياء إلى مثل هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، أدى ذلك إلى صيانة المجتمع من كثير من الآلام والشرور التى يقاسيها، وإلى البعد عن الشيوعية، وعن الفتن والثورات التى تنشأ من احتكار الأغنياء للثروة، وحرمان الفقراء منها.

وإن الناظر إلى الزكاة وأثرها فى المجتمع يدرك الحكمة فى فرضيتها، وجعلها ركنا من أركان الدين، وفى المرتبة الثالثة بعد التوحيد والصلاة.

وإذا اطمأنت نفس المسلم إلى هذا الحق، وأنه واجب عليه لأخيه المسلم، دعاه ذلك لأن يعرف أن عليه أنواعًا أخرى من التعاون ليست دون المال.

٣ - تحريم الربا:

الربا فيه من المفاسد والأضرار بالمجتمع الإنسانى من نواحيه الاقتصادية والاجتماعية ما لسنا فى حاجة هنا إلى الإسهاب فيها؛ فهو يتنافى مع الأخلاق الكريمة التى يجب أن تسود كل مجتمع فاضل؛ من المروءة والتعاون والتعاطف والتراحم، ويورث أفراد المجتمع الحقد والبغضاء، ويؤدى إلى حصول أصحاب الأموال على كسب دون عمل؛ فإنهم يستغلون حاجة المحتاج، وينصرفون عن الأعمال المشروعة للكسب الحلال، ويخلدون إلى الراحة والكسل، ويؤثرون التعامل بالربا مع الراحة الجسمية عن الاشتغال بالزراعة، أو الصناعة، أو التجارة أو غيرها، مما يحتاج إلى تعب وعناء؛ فتتعطل أيد كثيرة من الأيدى التى يجب أن تعمل، كما أنه يوجد هوة عميقة بين

---

(١) المضعفون: ذوو الأضعاف من الحسنات، من أضعف أى صار ذا ضعف.

طبقات الأمة بتحويل مجرى الثروة إلى جهة واحدة هى جهة أصحاب الأموال ومحاباة رأس المال، والانحياز معه على حساب العاملين الكادحين، وفى هذا يقول القرآن الكريم. ﴿كَيْ لا يكُونَ دُولَةً بيْنَ الأغْنياءِ منكُمْ﴾ [الحشر:٧]، وفى ذلك كما رأينا ما فيه من مفاسد اجتماعية واقتصادية، واختلال فى توازن المجتمع؛ فتحريمه والنهى عنه تشريع حكيم له أثره البالغ فى اقتصاد الأمة ومعاشها، ويقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذين آمنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعافًا مُّضاعَفةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]، ويقول سبحانه: ﴿يَمْحقُ اللَّهُ الرِّبَا ويُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ويقول عز وجل: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعلُوا فَأْذَنُوا بحَرْبٍ مِّنَ اللَّه ورَسُولِه﴾ [البقرة: ٢٧٩]، وعن جابر رضى الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه وقال: هم سواء[١]».

وإن المجتمع الذى يدين بالإسلام؛ فيتذكر دائما قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسنًا فَيُضَاعفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقوله عز وجل: ﴿الَّذين يُنفقُونَ أَمْوَالَهُمْ في سَبيلِ اللَّه ثُمَّ لا يُتْبعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا ولا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عندَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢] إلى أمثال هذه الآيات[٢] التى تحث على الإنفاق وعلى فعل الخير لوجه الله تعالى لهو المجتمع الفاضل الذى تنشده الإنسانية، والذى أرسى قواعده محمد صلوات الله عليه.

٤- الميراث:

شرع الإسلام للميراث نظاما حكيما يقضى بتقسيم تركة المتوفى بين عدد من أفراد أسرته، ليحول بذلك دون تضخم الثروات، وتجمعها فى أيد قليلة؛ فأين من هذا النظام الإسلامى الحكيم تلك النظم التى يقضى بعضها بانتقال جميع ثروة المتوفى إلى ابنه الأكبر، أو يدع بعضها المالك حرا فى أن يوصى بتركته لمن يشاء؛ فتجتمع من جراء

---

(١) اتجهت حكومتنا الرشيدة إلى العمل على إزالة الآثار السيئة للمعاملات الربوية من مجتمعنا العربى الإسلامى.

(٢) حث القرآن على الإنفاق فى أكثر من سبعين آية؛ لما لذلك من أثر بالغ للمجتمع.

ذلك ثروات ضخمة فى أيدى نفر قليل من الناس، مما يثير حفيظة الفقراء فى المجتمعات التى تخضع لهذه النظم، ويسبب انتشار المذاهب المتطرفة .

٥- قانون من أين لك هذا :

هو قانون اقتصادى عظيم، ومبدأ خلقى جليل، وأصل إسلامى صميم طبقه النبى ﷺ على بعض عماله على الصدقات حين رأى أنه استغل عمله لجمع مال لنفسه؛ فأخذه منه؛ فعن أبى حُميد الساعدى رضى الله عنه قال: «استعمل رسول الله ﷺ ابن اللتبية على صدقات بنى سليم، فلما جاء إلى النبى ﷺ وحاسبه، قال: هذا الذى لكم، وهذه هدية أهديت لى فقال رسول الله ﷺ : فهلا جلست فى بيت أبيك، وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا، ثم خطبنا؛ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإنى أستعمل رجالا منكم على أمور مما ولانى الله، فيأتى أحدكم فيقول: هذا لكم وهذه هدية أهديت لى؛ فهلا جلس فى بيت أبيه، وبيت أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا، فوالله لا يأخذ أحدكم منها شيئاً بغير حقه إلا جاء الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفن أحداً منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر، ثم رفع يديه إلى السماء حتى رؤى بياض إبطيه وهو يقول: ألا هل بلغت» (١) .

وقد مضى على تطبيقه فى حزم وصرامة عمر بن الخطاب، فكان يراقب عماله وولاته؛ فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، حتى لا ينحرفوا فيستغلوا مناصبهم فى الاستكثار من الثروات الشخصية، وله فى ذلك التصرفات الحازمة الحكيمة التى ازدانت بها سيرته (٢) .

---

(١) رواه البخارى فى مواضع منها باب الزكاة، وباب ترك الحيل، ورواه مسلم فى المغازى، وأبو داود فى الخراج .

(٢) كان رضى الله عنه، إذا رأى أن عاملا من عماله تضخمت ثروته، وزادت زيادة غير عادية شاطره إياها؛ وقد شاطر خالدا وعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص وغيرهم - راجع العقد الفريد جـ١ ص٥٢-٥٧ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٦- الأرض التى فتحت عنوة :

كان لعمر رضى الله عنه رأى سديد فى شأن الأراضى التى فتحت على المسلمين، وكان لرأيه هذا أثر عظيم فى اقتصاد الدولة الإسلامية، من حيث الإنتاج والتوزيع -- وهما جوهر الاقتصاد كما هو معروف - ذلك أنه حينما فتح الله على المسلمين العراق والشام، وغيرهما من الأقاليم الواسعة، رأى عمر رضوان الله عليه ألا تقسم هذه الأراضى المفتوحة بين الغانمين، ولكن تترك لأهلها مع وضع الخراج عليها لينفق منه على مصالح المسلمين على الدوام، ووافقه على رأيه هذا بعض الصحابة، وعلى رأسهم عثمان، وطلحة، وابن عمر رضى الله عنهم، وعارضة بعضهم، وكان أشدهم عليه فى ذلك، الزبير بن العوام، وبلال بن رباح، وسلمان الفارسى؛ فاستشار المهاجرين الأولين، فاختلفوا فيما بينهم، فعمد إلى تحكيم عشرة من الأنصار: خمسة من الأوس، وخمسة من الخزرج، رغبة منه فى أن يشركوه فى الأمانة التى حملها، فأعطى المحكمون الرأى لعمر، بعد أن استمعوا إلى رأى كل فريق من الطرفين، وكان ذلك إلهاما من الله، وتوفيقا لعمر، وفيه كانت الخيرة والمصلحة الراجحة للمسلمين، وعموم النفع لجماعتهم (١) .

---

(١) كان المخالفون لعمر يستندون إلى آية الأنفال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال: ٤١]، وإلى فعل رسول الله ﷺ حين قسم خيبر (أرض اليهود) بين الفاتحين. أما عمر ومن وافقه فكانوا يستندون إلى آيات سورة الحشر التى نزلت بعد سورة الأنفال فى غزوة بنى النضير بعد بدر وهى قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ .... وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ الآيات وقد تلا عمر رضى الله عنه على من عارضه هذه الآيات وقال: لقد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم فى هذا الفيء، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء، ولئن بقيت ليبلغن الراعى بصنعاء نصيبه من هذا الفيء ودمه فى وجهه، ويستندون كذلك إلى أن هذه الأراضى التى فتحت أجل وأكثر بكثير من أن تقسم بين الفاتحين وحدهم، وهى كل ما كان المسلمون يرجون فتحه فى تلكم الأيام، كما نظر إلى المستقبل البعيد، وفى هذا يقول: «لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر»، راجع البخارى باب المزارعة، وراجع سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص٨٠، الفقه الإسلامى للدكتور محمد يوسف موسى ص٣٧، وراجع كتاب الخراج لأبى يوسف ص١٣-١٥، ٨٢ ط الأميرية، وتفسير القرطبى والآلوسى وغيرهما في تفسير هذه الآيات .

٧ - النقود :

كذلك لم يفت الإسلام أن يعنى بأمر النقود، لأثرها الهام فى معاملات الناس بعضهم مع بعض؛ فنرى أنه قد عنى بضبطها وتحديد قيمتها حتى لا يكون هناك سبيل إلى التلاعب بها، والفوضى فى تداولها؛ روى البلاذرى: أن دراهم الأعاجم كانت ما العشرة منها وزن عشرة مثاقيل، وما العشرة منها وزن ستة مثاقيل، وما العشرة منها وزن خمسة مثاقيل، فجمع ذلك فوجد إحدى وعشرين مثقالاً؛ فأخذ ثلثه وهو سبعة مثاقيل فضربوا دراهم وزن سبعة مثاقيل [١] .

هذا إلى أن موارد بيت المال ومصارفه كانت عادلة[٢]، وثابتة محددة لا إبهام فيها ولا غموض، كما سيتبين فيما بعد عند الكلام على النظام المالى .

أضف إلى ذلك أن الإسلام أتى بمبادئ اقتصادية عامة لها أثرها فى الاقتصاد كقوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾ [الإسراء:٢٩] ، وقوله : ﴿ **وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ [الأنعام:١٤١] وفى الحديث: «القصد القصد تبلغوا» أى عليكم بالقصد من الأمور، إلى أمثال ذلك من الآثار التى تحث على التوسط والاعتدال، كما هو شأن الإسلام فى تشريعاته.

هذا وقد ذكرنا عند الكلام على الناحية الدينية وعلى المعاملات بعض الآيات القرآنية التى تتصل بالناحية الاقتصادية اتصالا وثيقا كآيات الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وآية المداينة .

---

(١) اخترنا هذه الرواية لإيجازها وسهولتها . وهناك روايات أخرى ذكرها البلاذرى فى فتوح البلدان ص٤٧١ ، والماوردى فى الأحكام السلطانية ص١٣٨ ، وابن خلدون فى مقدمته جـ٢ ص٦٤١ ، وأوفى الموضوع المقريزى فى رسالته فى النقود، كما تعرض لها بإسهاب صاحب الخطط التوفيقية .

(٢) كان ميمون بن مهران يحدث « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يجبى العراق كل سنة مائة ألف ألف أوقية، ثم يخرج إليه عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله أنه طيب، ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد » – الخراج لأبى يوسف ص٦٥ ، وهذا وعمرك هو عدل الإسلام .

نستطيع أن نقول بعد هذا: إن الإسلام حقق هدف الاقتصاد من العمل على رفاهية بنى الإنسان جميعاً، وحقق نظريته التى تتألف من الإنتاج والتوزيع والنقود على نحو عادل لا اضطراب فيه، ولا غبن على أحد .

وعلم الاقتصاد – كما يقول أهله – قد تقدم كثيراً فى وضع نظرية الإنتاج، ولكنه اضطرب، واشتد اضطرابه فى وضع نظرية عادلة للتوزيع .

أما الإسلام فإنه – كما يقول المنصفون من علماء الاقتصاد – قد وضع أسساً وتشريعات ثابتة حكيمة عادلة كل العدل فى التوزيع؛ وبذلك يكون قد انفرد بنظرية فريدة من نوعها فى عنصر هام من عناصر الاقتصاد .

* * *

obeikandl.com

الناحية الأدبية والعلمية

كان العرب أفصح الناس لسانا وأبينهم بياناً، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، وأن البلاغة ملك قيادهم، فلما جاء القرآن وهو كتاب أحكمت آياته، وفصلت كلماته، بهرهم واستثار إعجابهم .

يقول القاضى عياض (١) :

«إنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام، قد خصوا من البلاغة والحكم بما لا يخص به غيرهم من الأمم، وأتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب ... فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، أحكمت آياته وفصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول ....

وأنت إذا تأملت قوله تعالى : ﴿ **ولكُمْ فِي الْقِصاصِ حياةٌ** ﴾ [البقرة:١٧٩] ، وقوله : ﴿ **ولو ترىٰ إذْ فَزِعُوا فلا فوت وأُخِذُوا من مّكان قريب** ﴾ [سبأ:٥١] ، وقوله : ﴿ **دفع بِالَّتِي هِي أَحسنُ فإذا الَّذِي بَيْنَك وبينهُ عداوةٌ كَأَنَّهُ ولِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت:٥٤] ... إلى أشباهها من الآى، بل أكثر القرآن، حققت ما بينته من إيجاز ألفاظها، وكثرة معانيها، وديباجة عبارتها، وحسن تأليف حروفها، وتلاؤم كلمها، وأن تحت كل لفظة منها جملا كثيرة وفصولا جمة» .

سمع العرب القرآن وحفظوه، وأدركوا أهدافه ومراميه، فاندفعوا إلى الاستفادة من أسلوبه، وشاعت ألفاظه وطرائقه فى قبائلهم ومنتدياتهم، وظهر أثره فى خطبهم ورسائلهم، وانصرفوا عن الافتخار بالأنساب، والتنابذ بالألقاب، والغزل فى النساء، ووصف الجمل والصحراء، وما إلى ذلك من ميادين كلامهم، إلى التحريض على الحرب والجهاد، ونشر الدعوة، وهداية الناس إلى الإسلام .

---

(١) الشفاء جـ١ ص ٢١٧ ٢٢٢ .

وعرفوا كيف يكتبون العهود والمواثيق مع غيرهم، وأن يتخيروا لها من العبارات ما يحقق غايتهم؛ عرفوا مواقع الكلام، وأن لكل مقام مقالاً؛ فكانت كلماتهم تفعل فى النفوس مالا تفعله السيوف .

انظر إلى خالد بن الوليد حينما ذهب إلى اليرموك، ووجد المسلمين يقاتلون الروم على تساند فلم يرق ذلك له، ورأى أن قتال المسلمين على هذا النحو متساندين أجدى على الروم من إمدادهم، وأشد على المسلمين من عدوهم؛ فقام فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغى فيه الفخر، ولا البغى، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم؛ فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة على تساند وانتشار، فإن هذ لا يحل ولا ينبغى .....[1]».

وكانت النتيجة أن وحد المسلمون قيادتهم، وأخلصوا لله فى جهادهم؛ فكان النصر حليفهم، ولم تقم لعدوهم بعد ذلك قائمة .

وأما الناحية العلمية، فقد أطلق الإسلام عقولهم[2] من عقالها، وحثهم على أن يتفكروا، وينظروا فى ملكوت السموات والأرض فقال: ﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأعراف:١٨٥] ، وقال : ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ** ﴾ [ق:٦] .

ونوه القرآن بشأن العلم والعلماء فقال: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر:٩] ، وقال: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [المجادلة:١١] ، وقال: ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه:١١٤] .

وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع»[3] .

---

(١) راجع كتاب سيف الله خالد بن الوليد للمؤلف .

(٢) ذكر العقل ومشتقاته فى القرآن أكثر من أربعين مرة .

(٣) رواه الترمذى فى طلب العلم وقال: حديث حسن، ورواه أيضاً مسلم وأبو داود .

وأمر النبى ﷺ بتعلم اللغة الأجنبية؛ فكلف زيد بن ثابت كاتب الوحى فى السنة الرابعة من الهجرة بتعلم العبرية لغة اليهود، وقال له: «تعلم كتاب اليهود؛ فإنى والله ما آمن اليهود على كتابى»، وفى رواية أخرى: «إنه يأتينى كتب من ناس لا أحب أن يقرأها أحد، فهل تستطيع أن تعلم كتاب العبرانية؟ فقال: نعم» (١).

كذلك عنوا بالفنون المختلفة، ومهروا فى كثير منها كما سيتبين ذلك واضحاً فيما بعد.

ولم يمض قرنان من الزمان حتى كان العرب أساتذة العالم فى الثقافة والعرفان، والعلوم والفنون.

* * *

(١) راجع البخارى فى باب الأحكام، وأبو داود فى العلم، والترمذى فى الاستئذان وإمتاع الأسماع ص١٨٧ - ١٩٤، طبقات ابن سعد طبعة ليدن جـ٢ ص١١٥، تذكرة الحفاظ جـ١ ص٢٠، تاريخ الطبرى جـ٣ ص٤٢، وتاريخ ابن عساكر، والاستيعاب، وأسد الغابة فى ترجمة زيد بن ثابت، فتوح البلدان للبلاذرى ص٤٨٠، إمتاع الأسماع للمقريزى جـ١ ص١٨٧، ١٩٤.

obeikandl.com

الناحية السياسية

ساس النبى صلوات الله عليه أمته سياسة حكيمة رشيدة: صبر على أذاهم واحتمل جفوتهم، وصفح عن هفوتهم، وقبل معذرتهم، ووصل من قطعه وأعطى من منعه، وكان لا يواجه أحداً بسوء، يزور الضعفاء، ويعود المرضى فانقادوا إليه، واجتمعوا عليه، وتركوا فى سبيله أوطانهم وأموالهم، وآثروه على أنفسهم وأولادهم، حتى كان الواحد منهم لا يرى بأساً أن يقاتل دونه أباه أو أخاه .

كان ذا نظر ثاقب، ورأى صائب؛ ألم تر إلى ما كان منه حينما استقر به المقام فى المدينة؛ فقد آخى بين المهاجرين والأنصار إخاء كان له أطيب الثمرات، حتى إنهم كانوا يتوارثون به إرثا مقدماً على إرث القرابة (١) .

ثم انظر إلى سياسته الحكيمة التى تجلت فى العهد الذى عقده بين المسلمين واليهود، والذى وادعهم فيه، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وأن بينهم وبين المسلمين النصر على من دهم يثرب (المدينة)؛ «وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فمرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ» (٢) .

ثم فكِّر فى صائب رأيه حينما عقد صلح الحديبية؛ فقد قبل من شروط قريش ما ظنه عمر وبعض الصحابة إجحافا بالمسلمين، ولكن لم يمض طويل وقت حتى كان هو الفتح المبين .

---

(١) نسخ التوارث بالمؤاخاة بعد غزوة بدر – إمتاع الأسماع للمقريزى جـ١ ص ٤٩٩، ٥٥٠، وكان هذا الإخاء فى بيت أنس بن مالك رضى الله عنه، روى البخارى بسنده عن عاصم قال: قلت لأنس رضى الله عنه أبلغك أن النبى ﷺ قال: «لا حلف فى الإسلام؟ فقال: قد حالف النبى ﷺ بين قريش والأنصار فى دارى». وبسنده عن أنس رضى الله عنه قال: «قدم علينا عبد الرحمن بن عوف فآخى رسول الله بينه وبين سعد بن الربيع» . راجع البخارى فى باب الكفالة، وفى مناقب الأنصار، ومسلم فى الفضائل وأبو داود فى الفضائل أيضاً .

(٢) نص هذا العهد موجود فى سيرة ابن هشام جـ٢ ص١٦، ١٧، وأغلب الظن أنه لم يذكر فى غيرها، وهو أول معاهدة للتعاون، وعدم الاعتداء بين المسلمين واليهود .

ثم لا تأخذك الدهشة من صفحه وعفوه حينما تمكن من قريش يوم الفتح، وتوقع الكثير من الناس أن ينزل بهم من العقاب جزاء ما فعلوه معه، ومع أصحابه، ولكنه عفا، وصفح وقال لهم: «لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وهذا وربك هو العفو عند المقدرة، ولو شاء محمد صلوات الله عليه أن ينتقم لنفسه وأصحابه لفعل، ولكن كيف وقد قال فيه ربه ومولاه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

كان صلوات الله عليه إذا عاهد عهداً التزمه، ووفى به، ممتثلا فى ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤].

آتت هذه السياسة الرشيدة، والتشريع الحكيم، والأخلاق السامية الكريمة ثمرتها، وعرف محمداً صلوات الله عليه من لم يكن قد عرفه من قبل، واستجاب له من كان متأبيا عليه، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .ومن هذا يتضح أن المجتمع العربي الإسلامى صار يتميز بسمات شريفة، وصفات حميدة، ومظاهر كريمة أوجدها الإسلام؛ منها:

١- الإيمان برب واحد، بعد أن كانوا يعبدون أربابا متعددة.

٢- القضاء على المنازعات والمشاحنات التى كانت بينهم؛ فانتهت الحروب والغارات التى كانت تكدر عليهم حياتهم.

٣- أنه هذب أخلاقهم، وقضى على العادات السيئة التى كانت فاشية فيهم كالأخذ بالثأر، ووأد البنات، وشرب الخمر.

٤- أنه بث فيهم روح المحبة، وألف بين قلوبهم؛ فحلت الوحدة الدينية محل الوحدة القبلية.

٥- أنه نادى بالإخاء والمساواة، وأن التفاضل إنما يكون بالعمل الصالح والتقوى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، «ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى»؛ فقضى على الحمية حمية الجاهلية.

٦- أنه دفعهم إلى الجهاد فى سبيل الله، والدفاع عن الدعوة؛ وبذلك تمت الفتوحات العظيمة .

٧- أنه أوجد لهم تشريعا وافيا بكل مطالب الحياة الدينية والاجتماعية، والسياسية والأدبية، تشريعا مستقلا متميزا عن كل التشريعات السابقة .

٨- وأخيراً: أنه أشعر العرب لأول مرة فى تاريخهم أنهم يستظلون بظل حكومة واحدة، لها دستور واحد يحتكمون إليه جميعا، ولها رئيس مطاع من الجميع، يحبهم ويحبونه .

وقد تم لهم باستقرار الرسول صلوات الله عليه فى المدينة، واتخاذها مقراً دائما، إقامة دولة لها أركانها ومقوماتها، التى حددها رجال القانون (١) .

هذه جملة من النظم أوردناها ليتبين للناس أن الإسلام لم يغفل عنصرا من عناصر الحضارة، ولم يهمل شيئا من قِوام الحياة، وأنه دين واف بسعادة البشر جميعا فى كل زمان ومكان .

والواقع أن من ينظر فى حال العرب قبل الإسلام، وحالهم بعد الإسلام، ويوازن بين الحالين، يدرك فى سهولة ويسر أن الدين الذى جاءهم به محمد ﷺ هو الشىء الوحيد الجديد الذى جد عليهم، وأنه هو الذى قوم أخلاقهم، وهذب نفوسهم، ووحد كلمتهم، وأصلح مجتمعهم، وأعلى شأنهم، وأعز جانبهم، فأصبحوا بهذا الدين أمة عالمة بعد جهالة، ورشيدة بعد غواية، ونابهة بعد خمالة .

وقد اعترف بذلك كثير من المنصفين والمستشرقين (٢) .

---

(١) الأركان التى حددها رجال القانون هى: شعب يقيم فى رقعة معينة من الأرض، وشخصية معنوية يتمتع بها هذا الشعب، يمثلها صاحب السلطان، ونظام تخضع له، واستقلال سياسى يجعل هذا الشعب قائماً بذاته لا تابعاً لدولة أخرى - راجع نظم الحكم للمرحوم الدكتور محمد يوسف موسى، نقلا عن كبار رجال القانون .

(٢) راجع كتاب النظريات السياسية الإسلامية للدكتور محمد ضياء الدين الريس الطبعة الثالثة ص١٤، ١٥ ، وراجع كتاب الفقه الإسلامى للدكتور محمد يوسف موسى، وما نقله عن الأساتذة الدكتور شفيق شحاتة، والدكتور السنهورى، والدكتور حشمت أبو ستيت والدكتور صوفى أبو طالب فى أن التشريع الإسلامى لم يأخذ شيئاً عن التشريع الرومانى، وأنه إن كان شىء من ذلك، فالرومان هم الذين أخذوا؛ لأن المغلوب مولع دائماً بتقليد الغالب، كما يقول العلامة ابن خلدون .

يقول «سيروليم مُوير» : «امتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه، وأنه أتم من الأعمال ما يدهش الألباب، فلم يشهد التاريخ مصلحا أيقظ النفوس، وأحيى الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير كما فعل محمد» .

ويقول «كارليل» " «قوم يضربون فى الصحراء لا يؤبه لهم عدة قرون؛ فلما جاءهم النبى العربى، أصبحوا قبلة الأنظار فى العلوم والعرفان، وكثروا بعد القلة، وعزوا بعد الذلة، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرضين بعقولهم وعلومهم» .

ويقول الدكتور «فتزاجرالد» : «ليس الإسلام دنيا فحسب . ولكنه نظام سياسى أيضاً» .

ويقول الدكتور «شاخت» :«إنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدنيا معا» .

ويقول الأستاذ «شترثمان» : «الإسلام ظاهرة دينية وسياسية؛ إذ إن مؤسسه كان نبيا، وكان حاكما مثاليا خبيراً بأساليب الحكم» .

ويقول الأستاذ «جيب» : «إن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية، وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل، له أسلوبه المعين فى الحكم، وله قوانينه ، ونظمه الخاصة» .

ويقول الدكتور «جوستاف لوبون» : «والإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لمناحى العلم واكتشافاته، ومن أعظمها تهذيبا للنفوس، ودعوة إلى العدل والإحسان والتسامح» (١) .

ويقول «برناردشو» : «الإسلام دين الديمقراطية، وحرية الفكر، ودين البيع والشراء، وفوق ذلك فهو دين جنتلمان» (٢) .

ويقول المؤرخ المعاصر: «هـ . ج . ويلز» : «إن الإسلام ساد لأنه كان خير نظام اجتماعى وسياسى .... كان الإسلام أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية اتخذت سمة النشاط العقلى فى العالم حتى اليوم . ..» .

وأخيرا يقول صاحب قصة الحضارة: «لقد ظل الإسلام خمسة قرون على الأقل

---

(١) حضارة العرب ص١٤٣ .

(٢) مجلة الأزهر جـ٧ . مجلد ٣٨ .

من عام ٧٠٠م-١٢٠٠م يتزعم العالم كله، فى القوة والنظام، وبسطة الملك، وجميل الطباع، والأخلاق، وفى ارتفاع مستوى الحياة، وفى التشريع الإنسانى الرحيم، والتسامح الدينى، والآداب، والبحث العلمى، والعلوم، والطب والفلسفة» إلخ [١].

وحمادى القول: إن هذه الأسس العظيمة، وتلك الأصول المستمدة من وحى السماء قد أوجدت المجتمع المثالى الفاضل الذى لم تر الإنسانية له عِدلا ولا مثيلا.

وبعد فنقول فى وثوق: إن أسس الحضارة الإسلامية وأصولها الأولى قد استمدت أولا بالذات من القرآن والسنة، وأنها نضرة وكثيرة الاختلاف والتغاير عن الحضارات التى سبقتها، وقد اعترف بذلك كثير من الباحثين المنصفين.

يقول الدكتور جوستاف لوبون: «إن العرب أنشأوا بسرعة حضارة جديدة، كثيرة الاختلاف عن الحضارات التى ظهرت قبلها» [٢].

* * *

(١) راجع اشتراكية الإسلام للدكتور مصطفى السباعى ص ١٧٣ - ١٧٦ وراجع ما كتبه الدكتور عبد الحليم محمود فى سلسلة الثقافة الإسلامية العدد ٧ عن أوربا والإسلام.

(٢) حضارة العرب ص ١٥٣.

obeikandl.com

الحضارة العربية

لم يذكر لنا التاريخ شيئاً كثيراً عن الحضارة العربية قبل الإسلام، ومع ذلك فإن ما يؤخذ من الأطلال الباقية فى اليمن، ومن النقوش التى كشفها الباحثون هناك، ومن النقود اليمنية التى عثر عليها أخيراً فى صنعاء، ومن النقوش التى وجدت فى شمال الجزيرة، والتى تشير إلى وجود علاقات تجارية مع اليمن، ومما ذكره القرآن الكريم، عما كان بين بلقيس ملكة سبأ وسليمان عليه السلام [١] – يدل على أن بلاد اليمن كانت بها فيما سلف من الزمان ممالك ذات مدنية وحضارة [٢].

كما أن اختلاط المناذرة بالفرس، والغساسنة بالرومان، أكسبهم شيئاً غير قليل من حضارة هاتين الدولتين.

وقد كانت مكة على جانب من الحضارة يشهد لذلك ما كان لأهلها من تجارات جعلت لهم خبرة بشئون الحياة، ومعرفة بأحوال الآخرين، وما كان من تداعى قبائل منها إلى حلف شريف لنصرة المظلوم [٣]؛ فاجتمعوا له فى دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه، وتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وهو أكرم حلف سمع به، وأشرفه فى العرب؛ ولذا قال فيه النبى ﷺ: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو ادعى به فى الإسلام لأجبت» [٤].

---

(١) لم يكن ملك اليمن بالضخامة التى ترهب الملوك وتخيفهم، يدل على ذلك تخوف بلقيس – وهى من أشهر ملوكهم – حين تسلمت رسالة سليمان عليه السلام، وقولها لقومها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] وقول سليمان عليه السلام مهددا لها: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

(٢) راجع حضارة العرب للأستاذ جوستاف لوبون ص ١٠٨.

(٣) هو حلف الفضول.

(٤) عبد الله بن جدعان هو ابن عم السيدة عائشة رضى الله عنها، والقبائل التى اجتمعت=

وهذا الحلف هو فى حقيقته عبارة عن شبه نظام قضائى تستعين به قريش على الفصل فيما يقع من خصومات .

كما كان لها – كما قدمنا – دار للشورى هى (دار الندوة) يجتمعون فيها ويتشاورون فى مهام أمورهم، ويفصلون فى أحداثهم، وهى تشبه إلى حد ما مجالس النواب فى زماننا .

وفضلا عن ذلك فإنها قد أخذت حذرها من أن تختلف على نفسها، فقسمت شارات الشرف بين قبائلها؛ وجعلت لكل قبيلة منها شارة من هذه الشارات؛ يليها رئيسها لا ينازعه فى ذلك رئيس آخر من قبيلة أخرى .

ومهما يكن من شىء فإن العرب كانوا هم العنصر الهام فى الدولة الإسلامية؛ فقد آمنوا بالنبى ﷺ وعزروه ونصروه؛ واتبعوا النور الذى أنزل معه؛ وقد ألقى عليهم هذا الدين الذى ارتضوه لأنفسهم مهمة القيام بنشره والدفاع عنه .

وقد اكتسبوا من صلاتهم التجارية مع غيرهم، خبرة ومعرفة بأخبار الناس، كما كان لعاداتهم، وأخلاقهم، وآدابهم التى عرفت عنهم، من الشجاعة والنجدة، واحتمال الشدائد، والاستهانة بالمخاطر، والصبر على المكاره، وحماية الذمار، وما إلى ذلك أثر واضح، يسر لهم القيام لنشر الدعوة الإسلامية، والدفاع عنها والموت دونها .

وكان لهم حظ موفور من الأمثال والحكم الجامعة، يرددونها فى المناسبات، وقد عنى العلماء بجمعها فى كتب خاصة، من أهمها كتاب الأمثال للميدانى، كما عنوا بأيامهم، وتاريخ ممالكهم قبل الإسلام .

كذلك كانت لهم ثقافة انفردوا بها؛ فقد كانوا يحرصون على أنسابهم حرصا شديدا، ويعدون ذلك من مفاخرهم، بعد أن جاء الإسلام واشتغلوا بالكتابة والتدوين عنوا بالأنساب، وأفردوها بالتأليف؛ مما أدى إلى قيام علم الأنساب، لمعرفة أنساب

= فى داره هى: قبائل بنى هاشم، وبنى المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، وفى هذا الحلف قال الزبير بن عبد المطلب :

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ... ألا يقيم ببطن مكة ظالم

أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا ... فالجار والمعتر فيهم سالم

راجع سيرة ابن هشام جـ١ ص٩٠ – ٩٢ .

القبائل والأفراد، وممن ظهر فى هذا العلم، الكلبى (صاحب التفسير المعروف)، وابن حزم، والسمعانى، والمبرد، إلى أمثالهم .

كما نبغوا فى الشعر، نبوغا جعله فنًّا عربيا ممتازا، وكان له عندهم منزلة ملحوظة؛ فقد كان ديوان أخبارهم، وسجل حروبهم وأحداثهم . وكنز لغتهم وبلاغتهم، وكان إذا نبغ شاعر فى قبيلة من قبائلهم فرحت واستبشرت، وعدت ذلك شرفا وقوة لها على غيرها [١] .

ومن أجل ذلك أفتن أهل الأدب فى جمعه وشرحه للاستشهاد به فى تحديد معانى الألفاظ الغامضة، ولبيان ما فيه بلاغة وبراعة وروعة، فضلا عن إيضاح الحوادث التاريخية الهامة فى حياتهم .

يقول أبو القاسم صاعد الأندلسى : « وأما علمها الذى كانت تتفاخر به، وتبارى به، فعلم لسانها، وإحكام لغتها، ونظم الأشعار، وتأليف الخطب، وكانت مع ذلك أصل علم الأخبار، ومعدن معرفة السير والأمصار » [٢] .

كذلك عرفنا أنهم كانوا ذوى معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها [٣] .

كان لهذه الأخلاق والعادات والآداب، ولهذه الثقافات التى امتازوا بها أثر ظاهر فى الحضارة الإسلامية، يقول الدكتور غوستاف لوبون : « كان للعرب قبل ظهور محمد آداب ناضجة ولغة راقية، وأنهم كانوا ذوى صلات تجارية بأرقى أمم العالم منذ القديم، وأنهم استطاعوا فى أقل من مائة سنة أن يقيموا حضارة من أنضر الحضارات التى عرفها التاريخ . . » .

ويقول أيضاً : « والعرب الذين استطاعوا فى أقل من قرن أن يقيموا دولة عظيمة، ويبدعوا حضارة عالية جديدة، هم لا ريب من ذوى القرائح التى لا تتم إلا بتوالى الوراثة، وبثقافة سابقة مستمرة . . » [٤] .

ومن ثم يتبين لنا أنهم أسهموا بنصيب غير منزور فى تقدم الحضارة الإسلامية ورقيها .

* * *

(١) سنذكر فيما بعد فصلا خاصا بالشعر عند العرب .

(٢) راجع طبقات الأمم ص٦٨ . (٣) نفس المصدر ص٧٠ .

(٤) راجع كتابه حضارة العرب ص٩٨، وهذا القول من مثل هذا الباحث الكبير ينقض القول بأن الحضارة الإسلامية مزيج من الحضارة الفارسية واليونانية .

الحضارة الفارسية (١)

الفرس أمة عريقة فى الحضارة، وقد ازدهرت حضارتها فى زمن الدولة الساسانية، وبرزت فى السياسة، والإدارة، والحروب، ومظاهر الترف والرفاهية، وكان لها دين رسمى الزرادشتى، ولغة ذات آداب وحكمة هى اللغة الفهلوية .

ولما فتح الله على المسلمين بلاد فارس، وقوضوا عرش الأكاسرة، اختلط الفرس بالمسلمين، وعرفوا منهم الشىء الكثير من محاسن الدين الإسلامى وسماحته، وأنه دين الإخاء والمساواة، والتعاطف والتراحم، والمحبة والإيثار؛ فدخلوا فى دين الله أفواجا، وصاروا موالى للمسلمين، وأقبلوا على اللغة العربية يدرسونها ويحصلونها؛ فهى لغة دينهم الذى أحبوه؛ واعتنقوه، حتى تعينهم على فهمه وتدبره .

وكان حبهم لهذا الدين ولغته مدعاة للعناية بهما؛ فلم يمض وقت طويل حتى أسهموا فى الحركة العلمية، وفى التأليف، بل ونبغوا فيهما، وأفادت الحضارة الإسلامية من ذلك فوائد جمة، منها :

١- أنه كانت هناك بعض الألفاظ التى تعبر عن مظاهر الحضارة، وليس لها مقابل فى اللغة العربية؛ فنقلت بذاتها إلى اللغة العربية، ودخلت فى بنيتها .

٢- نبوغ كثير من موالى الفرس فى مختلف العلوم العربية والإسلامية؛ فقد برز فى الحديث الحسن البصرى، ومحمد بن سيرين، وأبو عبد الله البخارى إلى أمثالهم، وكان لهم فضل كبير فى رواية الحديث، ونبغ فى الفقه الإمامان أبو حنيفة، والليث بن سعد، وكان لهما ولأمثالهما شأن أى شأن، وظهر فى الكتابة عبد الحميد الكاتب، وابن المقفع، وغيرهما، وفى الشعر بشار، وأبو نواس، إلى نظرائهما، وقد أدخل هؤلاء

---

(١) راجع فى هذا الموضوع والذى بعده كتاب تاريخ العالم العربى وحضارته للدكتور محمد مصطفى زيادة وزملائه .

وأولئك على النثر والشعر أساليب، وتعبيرت وأخيلة كثيرة، وهكذا حتى استفاضت فى العصر العباسى حركة العلم والتأليف فى مختلف العلوم الإسلامية، كما ترجم كثير من الكتب إلى العربية .

وانتقلت إلى الحضارة الإسلامية عن طريق هذه النهضة العلمية بعض معارف الهنود وغيرهم من الشعوب الشرقية المتحضرة .

وقد كان لهؤلاء الموالى أثر اضح فى الحضارة الإسلامية، وقد روى أن «بعض الأعراب سأل رجلا من أهل البصرة عن سيد هذه البلدة فقال: الحسن بن أبى الحسن البصرى، قال أمولى هو؟ قال: نعم، قال: فبم سادهم؟ فقال: بحاجتهم إلى علمه، وعدم احتياجه إلى دنياهم؛ فقال الأعرابى: هذا لعمر أبيك هو السؤدد» (١) .

* * *

(١) راجع كتاب اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير ص٢٧٨، وفيه أن الزهرى ذكر: «أن هشام بن عبد الملك قال له: من يسود مكة؟ فقلت: عطاء» قال: فأهل اليمن؟ قلت: طاووس، قال: فأهل الشام؟ فقلت: مكحول. قال: فأهل مصر؟ فقلت: يزيد بن أبى حبيب، قال: فأهل الجزيرة؟ فقلت: ميمون بن مهران: قال: فأهل الكوفة؟ فقلت: إبراهيم النخعى، وذكر أنه يقول له عند كل واحد: أمن العرب أم من الموالى؟ فيقول: من الموالى، فلما انتهى، قال: يا زهرى: والله لتسودن الموالى على العرب، حتى يخطب لها على المنابر، والعرب تحتها، فقلت: يا أمير المؤمنين إنما هو أمر الله ودينه فمن حفظه ساد، ومن ضيعه سقط» .

الحضارة اليونانية والرومانية

اليونان أمة ذات حضارة عريقة، وقد نبغت فى الفلسفة والعلوم، والفنون والآداب، وظهر فيها أساطين الفكر في العالم القديم مثل سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وقد انتشرت ثقافتهم فى الشرق على أثر فتوح الإسكندر، وقيام أسر يونانية حاكمة فى الشام ومصر خاصة .

وفى القرون السابقة على الإسلام نقل سريان الشام والعراق إلى لغتهم السريانية كثيراً من تآليف اليونان فى الفلسفة، والطب، والرياضيات، والكيمياء، والفلك، والجغرافيا، وعلقوا عليها وشرحوها .

ثم أنشأوا المدارس لتعليم هذه العلوم فى العواصم الكبرى، ومنها أنطاكية، وقيصرية، ونصيبين، والرها، كما قامت بالإسكندرية مدرسة لتعليم الطب اليونانى، وأخرى بجنديسابور فى إقليم خوزستان .

وبذلك انتشرت الحضارة اليونانية فى أقطار الشرقين الأدنى والأوسط، ولما ظهرت الدولة الرمانية امتزجت حضارتها – ولا سيما فى تشريع القوانين وهندسة الطرق – بالحضارة اليونانية وأثرت فيها .

وفى العصر العباسى أمر هارون الرشيد بترجمة كثير من كتب اليونان، كما عهد ابنه الخليفة المأمون إلى طائفة من السريان أن ينقلوا الكتب اليونانية المعتمدة فى علومهم إلى اللغة العربية؛ فنقلوا الكثير منها إلى العربية عن السريانية، وبعضها عن اليونانية رأساً؛ فقويت فى عهده حركة الترجمة والنقل، وأرسل فى سبيل ذلك البعوث إلى القسطنطينية، وبذل لها الأموال الوفيرة .

وبذلك انتقلت الثقافة اليونانية إلى المسلمين، وأصبحت من أهم الأسس فى الفلسفة، والطب، والكيمياء، والرياضيات، والفلك، والجغرافيا عند العرب .

* * *